الدراسات المستقبلية
من السراب التكنولوجى إلى الإبداع الاجتماعى

أ.د / محمد ضياء الدين زاهر *

تمثل المسألة القيمية فى الدراسات المستقبلية، كما فى كافة العلوم الاجتماعية الأخرى، إشكالية متجددة إذ أنها تطرح باستمرار بأشكال ومستويات متعددة، إيديولوجية وإبستمولوجية وميثودولوجية، وأيضا سوسيولوجية.

وذلك كلما ظهرت قناعة باستحالة ثباتها. كما يعاد فحصها وتحسينها دوما فى ضوء المتغيرات والمستجدات المتلاحقة.

وضمن هذا كله، نريد أن نقدم مساهمة أولية فى حدود المساحة المتاحة هنا، من أجل تأمل المسألة القيمية فى الدراسات المستقبلية استنادًا إلى طرح مجاوز للطرح الفلسفى الدائم لها، وذلك عبر طرح سوسيولوجى ومنهجى يقوم فى الأطر الاجتماعية للقيم ودورها المجتمعى.

ولعل أول ما ينبغى إبرازه هنا هو أن "القيم" فى تحليلها النهائى، منتج مؤثر فى الوجود الإنسانى، وظاهرة اجتماعية ومجتمعية مصدرها البناء الثقافى بحكم كونها تنطوى على نتاج الخبرات الاجتماعية والثقافية المتراكمة، تلك التى تشكل آليات

* مدير مركز الدراسات الإستراتيجية والمستقبلية – جامعة عين شمس.(رئيس تحرير مجلة مستقبل التربية العربية)

ISSN:1687-3572 (Print) - ISSN:2537-0642 (ONLINE)

للاختيار والانتقاء من بين "بدائل الاتجاه" فى المواقف الاجتماعية المختلفة. لذا، فإن القيم هامة لكونها مصدرا ثقافيا ومعياربا لإمداد أفراد المجتمع وأعضائه "بالخريطة الإدراكية المعرفية" لماهية هذا العالم، ومكان المجتمع فيه، وتفسير الفرق بين الخير والشر.

امتدادا لما سبق وعرضنا له من قبل يمكن التساؤل:

هل من الممكن قيام دراسات مستقبلية خالية من القيم؟

للإجابة على هذا التساؤل، لابد أن نؤكد على أن الجدل النظرى والعقائدى الذى انبثق فى السنوات الأخيرة حول هذا السؤال يمثل انعكاسا وانكسارا للصراعات الاجتماعية والعقائدية فى عالمنا المعاصر حول ما يمكن أن يشكل علما للمستقبل أو دراسات مستقبلية.

فالنشأة الأولى لهذه الدراسات قد ارتبطت، خاصة فى صورتها الأمريكية، بالتنبؤ التكنولوجى الذى ينظر لصورة المستقبل الحتمية من هذا المنظور، ويفضل أو يدعى القطعية القيمية بدعوى "الحيادية" و"العقلانية الصارمة". لذا، فهو يسخر كل إمكاناته من أجل خدمة الأنظمة العسكرية والاستخبارات والنخب الحاكمة والشركات التجارية والصناعية، أكثر مما يخدم المواطن العادى، وحتى عندما تحولت بحكم تغير العالم لتخدم الشؤون الاقتصادية والسيكولوجية والسياسية والتنموية ظلت على علاقتها الوثيقة بالمركب العسكرى الصناعى، على حد تعبير "زريق".. وظل هدفها الخفى استعمار مستقبل الشعوب المتخلفة عوضاً عن استعمار المكان (الأرض). فالدراسات

المستقبلية، أو ما كان يطلق عليه اسم علم المستقبل، من المنظور البراجماتى الأمريكى لا يكتفى بهذا فقط "الصبغة التقنية"، إنه يكتسى أساساً "صيغة قيمية" عدائية – يحاول إخفاءها – باستمرار. فالتحليل العميق يكشف أنه يتجاهل العمليات الاجتماعية والنظر إليها بتسطيح إستاتيكى غير مباشر، ويتنكر للوقائع الموضوعية، ويركز على ما هو هامشى سعيا نحو السيطرة على العالم النامى عبر "أسطورة علم مستقبلى خال من القيمة" هدفه المعلن تشييد ديموقراطية المجتمع المهيمن بالعقلانية والمخدوم بالانتشار التكنولوجى الاجتماعى وهدفه الخفى تزييف فهم المستقبل، وإغراق دراساته فى جزئيات متناثرة وسراب تكنولوجى، وتهميش لدور الدراسات المستقبلية، كعلم اجتماعى له دوره المجتمعى والعالمى. لذا، نجد"جارودى" يقرر أن مثل هذا العلم يضيف الإبداع الاجتماعى، ويشن حربا وقائية ضد المستقبل جعله محكوما بالماضى والحاضر.. ليس من مستقبل حقيقى ولا من ابتداع حقيقى للمستقبل إلا من منظور التفوق والتسامى، أى من منظور القطيعة بينه وبين ما سبقه وتجاوز الحاضر والماضى كى لا يكون المستقبل الحصيلة والنتاج اللغوى الفاعلة فى الماضى فحسب.

وبالتالى فإن هذه الدراسات أو ما يسمى بعلم، ليس أكثر من ترجمة أمينة للقيم الغربية المتحيزة والمتعالية، والتى اكتسبت صفة"توجهات" و"أوامر رسمية" توظف بطريقة عدوانية. فنحن إذن أمام علم مستقبلى متحيز، وينطوى على قيم عدائية وليس خاليا من القيم كما يدعى أنصاره (راجع بل، وكون...الخ).

وهذا التصور البراجماتى قد أخذ يتفكك ويفضح تماما عندما قامت انتقادات له تكشف أطره القيمية المتحيزة.

ISSN:1687-3572 (Print) - ISSN:2537-0642 (ONLINE)

فاستحال بذلك قيام علم أو دراسات متحررة من القيم. فحتمية وجود القيم فى الدراسات المستقبلية بعامة يؤكدها العديد من علماء المستقبليات فنجد "تافيس" مثلاً. تؤكد على أن البواعث الكامنة وراء دراسة المستقبل تتفق مع نظيراتها فى معظم البحوث العلمية والدراسات الاجتماعية، وهى الفهم والتحكم. وإن كان عالم المستقبل المعنى بوضع سياسة توجيهية تقوم على أساس اختيار أفضل المسالك الممكنة والمرغوبة للعمل من بين الاحتمالات العديدة التى يقدمها لنا المستقبل، هو أكثر مطالبة بالتساؤل عن (القيم) التى تستطيع – أو ينبغى لها – أن تضطلع بدور الخطوط الموجهة للعمل أو السلوك.

كما يؤكد عديد من المستقبليين على وجود مايسمى بالحساسية القيمية Value Sensitiveness فى الدراسات المستقبلية، كما يناصر البعض الآخر فكرة وجود ما يسمى "بالفروض الضمنية (الخفية) فى الدراسات المستقبلية التى تقوم على سيطرة القيم عليها وتوجيهها بشكل غير مباشر.

كما أن "المنجرة" يرى أن الدراسات المستقبلية تستلزم أن يتسم تحليل معطيات الواقع واتجاهات الأحداث من جهة، والطريقة المنهجية المتبعة من جهة أخرى، بطابع الدقة والموضوعية، إلا أن الغاية من هذه الأداة تكتسى "صيغة معيارية" فى جوهرها إذ هى استجلاء للمرامى والأغراض. وتأتى الخبرة فى الدراسات المستقبلية من صياغة تلك الأغراض فى إطار ابتكار وإبداع أنساق قيم اجتماعية ثقافية، وترجمة تلك الأغراض إلى مخطط عملى فى شكل اختيارات بديلة وسيناريوهات ممكنة.

إذن فالمستقبل مرتبط بقيمنا وبخياراتنا وبمبادئنا الأساسية التى تختلف وتتبدل بين بعضها البعض على أساس الأجيال والثقافة والعلوم والخبرات ، وبالتالى لا يمكن أن يقوم علم للمستقبل – أو دراسات مستقبلية – خال من القيم.

هل من الممكن استغلال المستقبل قيمياً؟

يرصد "المنجرة" ثلاثة صور لاستغلال القيم فى دراسات المستقبل **أولاها**؛ ما يطلق عليه" المستقبلية التفاعلية" تقاوم الحاضر بتبرير الماضى عوضا عن ابتكار المستقبل، تطلب النجدة كذلك من الدراسات المستقبلية حينما يصبح الواقع لا يطاق، لتبرير هروب إلى الأمام إخلاء للحاضر وتلك "**مستقبلية تحذيرية**" قريبة من الديماجوجية فى بعض الأحيان، تستعمل الدراسات المستقبلية أيضا للتأثير على الحركات الفكرية، وذلك بحصر الأولوية لفائدة التصورات المستقبلية دون أخذ رأى المعنيين بالأمر. وفى هذه الحالة نكون أمام "**مستقبلية الانتهاز**" على المستوى الوطنى أو مستوى الاحتكار على المستوى الدولى.

على أن الاستغلال القيمى للمستقبل وصور تحريفه تتجلى فى التوجهات الأخيرة لعدد من المفكرين والسياسيين الغربيين الذين يسوقون مجموعة من المفاهيم الفكرية التى تسعى إلى محاولة ملء الفراغ النظرى الشاسع الذى خلقه انهيار الماركسية وانتقاء الصراع الأيديولوجى فى قبضة الحرب الباردة، سعيا نحو استخدام نتائج الدراسات المستقبلية كشكل من أشكال الإمبريالية الجديدة. ويظهر هذا فى تفسيراتهم للاقتصاد والسياسة والدبلوماسية بلغة "المناطق الثقافية والقيمية". ولعل خير مثال معروف، هو المفهوم القائل بأن القيم الآسيوية تفسر نجاح النمو الاقتصادى فى

ISSN:1687-3572 (Print) - ISSN:2537-0642 (ONLINE)

جنوب شرق آسيا، بالقيم الآسيوية وما تقدمه من أخلاق العمل الكونفوشية، فيما تقوم تحليلات أخرى على أن النزاع العالمى ناجم أو سينجم عن "صراع الحضارات" كما عند "هانتجون"، أو إلغاء التاريخ واعتباره بعدا زائفا من أبعاد الوجود البشرى سعيا نحو تدمير الدولة الوطنية بهدف إحلال "الدولة الكونية" محلها، كما فى حفريات المعرفة عند "فوكو"، وعند من يروجون لفكرة "العولمة" واعتبارها صورة المستقبل الحتمية التى تساعد على شيوع قيم رفيعة.

وهناك أيضا من يروج لها من زاوية أن الأنواع المختلفة من التنظيمات التجارية يمكن تفسيرها بمقدار ما يثق "الناس ببعضهم بعضا فى البلدان المختلفة، ويظهر ذلك واضحا عند "فوكو ياما" فى كتابه الأخير عن "الثقة".

والواقع أن كل هذه المغالطات القيمية قد ظهرت نتيجة النقود التى وجهت إلى الدراسات المستقبلية على الطريقة الأمريكية–الذى أدعى خلوه من القيم..فاضطرت إزاء هذه النقود أن تضمن القيم فى تنبؤات وتوقعات، ودعم صورة المستقبل الحتمية.. وصارت الدراسات المستقبلية تروج لقيم وأفكار ثقافية محبطة تأكيدا لهذه الحتمية..

فادعت فى واحدة منها أن التقدم فى المستقبل يقوم على ضرورة وجود قيم ثقافية تحل ليس فقط محل الايدولوجيا بل أيضا فى صيغ السياسات المستقبلية وفى حروب المستقبل. ستقع مابين أمم ومجموعات من ثقافات ذات قيم مختلفة... وقد تكون غربية، كونفوشية، يابانية، إسلامية، هندوسية، أرثوذكسية، أمريكية لاتينية وربما إفريقية وبوذية. ويتوقع أن يهمن الصراع بين هذه الحضارات على السياسات العالمية

وترتسم خطوط المعارك المستقبلية على الحدود بين هذه الثقافات. كما أن هذه السياسات العالمية سوف تجرى إعادة ترتيبها وفقا للاعتبارات الثقافية. ويشدد"هانتجون" على أهمية القيم والمؤسسات الثقافية فى الفوضى التى خلفتها الحرب الباردة.

أما "فرانسيس فوكوياما" فيشترط وجود سمة أو خصيصة ثقافية وحيدة، هى الثقة، كشرط للتقدم وللمنافسة المستقبلية بين الأمم. وأنه بقدر ما تتأصل هذه السمة فى مجتمع ما بقدر ما يصبح قادرا على المنافسة والتقدم المستقبلى. ويوضح أن مجتمعات "الثقة المنخفضة"، كالصين وفرنسا وإيطاليا، حيث العلاقات الوثيقة بين الشعب لا تتعدى كثيرا نطاق العائلة هى مجتمعات فقيرة على صعيد توليد المؤسسات الاجتماعية المعقدة، كالشركات متعددة الجنسيات، ولهذا فهى تقف فى موقف تنافسى أضعف بالمقارنة مع أمم ذات "الثقافة العالية" مثل ألمانيا واليابان والولايات المتحدة. وهذا ينسحب على الشعوب الإسلامية التى يرى أنها ذات ثقة ضعيفة فى النفس مما يجعلهم لا يستوعبون الثقافات الأخرى.

أما العولمة، وخاصة فى شقها الثقافى، والذى يقود إلى نوع من العبودية، هى عبودية "القرية العالمية"، فهى مفهوم قسرى يدعو دول العالم المتخلف والصغير إلى الإذعان لزعامة يقودها المركز الجديد للنظام العالمى وهو الولايات المتحدة.

فهذه "العولمة" تتجه إلى نسف قيم أثيرة كالتضامن الاجتماعى والولاء الوطنى وقيم العائلة، وإحلال قيم أخرى هدفها التركيز على العائلة النواة، وتدمير التضامن،

ISSN:1687-3572 (Print) - ISSN:2537-0642 (ONLINE)

ونشر الاغتراب والرذيلة والجرائم، وتعاطى المخدرات، وارتفاع نسب الانتحار فى المجتمع.

وليس من همنا الولوج فى هذه التداعيات التى تخرج بنا عن دائرة اهتمامنا الحالى، وإنما أردنا التمهيد لتفسير تغلغل القيم فى الرؤى والتصورات المستقبلية.